



عبد اللطيف اللعبي

أنوار الكهف

ترجمة: محمد الشركي

الثانية، حتى تُذركها قَبْلَ أطْياف الفجرِ، فتنترع منها هلاؤها وهضبة نجومها المكتسبة بالرافة.

عينانا معصوبتان. ظلمات مُشْتَبِكَةٌ بِأخيها الظلمات. إن مهارة أشباهنا البعيدين لا حد لها عندما يتعلق الأمرُ بِعزف سمفونية العذاب.

يداننا مغلولتان خلف ظهرنا. «تمدّد هكذا أيها الشجاع. الوضغ مُريح كما لو كنت في بطن أمك. الولادة تستحق العناء. لا يدخل المرء إلى العالم كما لو كان طاحونة.. طاحونة، طاحونة، هي هي، ها ها، دون كيشوت. مؤخرتي».

حوّلنا المتاهة التي رسمها سيّد الغياب الكبير. سيقتادوننا إليها كما لو كنا أوديين أخيرين ليلقنونا المعرفة. دليلنا أغمى بصير. لا يتكلف بالمهام القديرة. حتى إنه سيسمح لنا في الطريق بالذهاب إلى المرحاض. سيفك قدينا، ويثقي على عصابتنا. سيساعدنا على الجلوس فوق الثقب، وتضويب دفقة بولنا. وسيكون له أن يتباهى في قرارة نفسه بأنه ممرض تلك الأمكنة.

سواء توقفنا للتبول أم لا، فالمصير محتوم. سيجعلوننا نلّف ونُدور، ونهبط أذراجاً، ونزثقي أخرى، وسيدفعون باباً ويدفعوننا. الحلبة ليست جرداء. ثمة مصاطب ومعدات: دس، مجثم بيغاي، جبال، قناني فارغة، إطارات مطاطية مستعملة. أشياء تكت مشاهدتها في الحلم أو في الواقع، لكننا نحرزها، ونحس بها عبر إشعاعها. حرارة تينة، ولزوجة باردة. مثل إحساس المرء حينما يدخل رأسه في مائة خروف دُبح لثوه. الجزارون الآليون هنا. يقفون أماناً في صف شرفي. نمّ تحت وإيل من الصفعات واللكمات. لكننا نلفي هذا أقل رهبة من الأسئلة التي لن يتأخروا في طوحها علينا. الأسئلة التي لن يتركوا لنا في الوهلة الأولى وقت التفكير فيها أو الإجابة عنها. سيتكفلون بالتعليق نيابة عنا. «كلما أمعنا في سحق حبات الكمون، زادت رائحتها تصوعاً». ودون إبطاء، يشرعون في تطبيق حكمة

سأمسك بيدك ونبارح الكهف. أتخيلك عديمة اللون. لا أعرف إن كنت رجلاً أو امرأة. لكن جخرة الاندهاش والشهوة في عينيك. لم تتكلم منذ اكتشفنا أنفسنا جنباً إلى جنب في هذه العتمة التي لا تنتسب إلى الليل. كانت تُلغنا بِحُجُبها الغامضة والحامية. كُنّا نجس حريرها حتى نَعْفُو. وحينما كُنّا نَسْتَيْقِظُ، كانَ فَمَانَا يَتَحَلَّبَانِ لِجُرُودِ لِسِيهَا. لَقَدْ عَشْنَا هُنَا حَقًّا طَوَالَ ذَلِكَ الزَّمَنِ دُونَمَا حَاجَةٍ سِوَى حَاجَتِنَا لِئَلَّا نَفْقَدَ بَعْضُنَا. بَلْكَ كَانَتْ صَلَاتُنَا. طَعَامُنَا وَشَرَابُنَا. قَصِيدَتُنَا الصَّامِتَةُ.

هل كان ثمة نهر في الجهة الأخرى للجدار؟ نهر حقيقي ذو منبع ومصب، وبه قوافل عائمة، ونداءات من الضقة إلى الأخرى، وضحكات طفولية، وصيادون يزومون التأمل أكثر مما يهتهم معتم غير مضمون. هل كان نهرًا أم أنه مجرى الزمن لا غير؟ لكن أين كنا في ذلك المكان الذي لم نعد به حالما قررنا مبارحته؟

سأمسك بيدك. وعندما تتلامس أصابعنا، ستتطاير شرارات الحجر إلى أن تبلغ القبة. وستنبثق من هذا المدى بصيص التور الذي سيهدينا إل المخرج. سيكون ذلك هو سمسنا، الإشارة المغطاة لكي يتسلم نفاذ صبرنا الزمام. وبعد عهد الهجران نرور أنفسنا من جديد. سنُدْفَعُ الصخرة ونكتشف غويتنا.

سيكون العالم المُشْرِخُ أماناً غريباً وأليفاً في آن. ستراه كما لو غادرتاه منذ ألفي عام، منذ قوزين أو ربما منذ يومين.

سيستوقفنا هذا اللعز. سنلتمس فهم. وسيكون الاقتلاع الذي حَمَيْنَا نَفْسَيْنَا مِنْهُ. لَانْنَا لَمْ نُرِدِ الثَّمَوَ بَعِيداً عَن عُمْرِنَا. لَأَنَّا لَمْ نُرِدِ الثَّخْلِي عَمَّا يَنْبَغِي تَسْمِيئُهُ «براءتنا».

سنبداً من النهاية.

وماذا لو تعلق الأمر بيومين فقط؟ السؤال لا ذع. أيه مخنة لقلبينا المصائبين بجنون المعددين! يؤمان فقط أو بالأحرى لئلا في أعقاب

المثل. يذرون كمون كيثوتينا في مدق. والجزازون الآليون
يسحقونه. رحي صخرية، طاحونة مائية، طاحونة كهربائية إلى أن
تضيق معالم صراخنا. صراخنا، صراخ الدابة الإنسانية، اللا يُحتمل
واللا ينتهي.

الأم آخر ذلك الذي سيوقظنا. ألم الجسد الذي لم يهدد يعاني في
نظر الآخر، ولكن لأجل ذاته. لقد أعادونا إذن إلى بداية المتاهة،
وزمنا مثل كيس من البطاطس الرخوة. ماذا قلنا أثناء هذياننا؟ ومتى
مؤعد الفسحة المقبلة؟ هذيان من أجل الهذيان، ونحن نحاول أن
نتعقل، ونفهم، ونرتقب، نحاول أن نلقي بأنفسنا إلى ما وراء هذا
الماوراء. الشجرة الأولى التي سئلقها كصديقة قديمة. يد الحبيب
المفتوحة لكي نملأ بها يدنا، والانقلاب الكبير الذي ستهوى خلاله
قلاع جديدة بمعجزه الطيبوية الإنسانية وحدها. قوس قزح الأخوة
الذي سيرتفع من الأفق إلى الأفق مثل حزام فاطمة الزهراء. آه أيتها
الخرية، يا لسكرتك، أيتها المتملقة القاسية!

يومان كافيان لهذه الأبدية.

كلًا، ليس الأمر على هذا النحو. لا بُد أن ذاكرتنا خدعتنا. كيف
يمكننا الانخراط في هذه الديمومة التي تتوقف عند الشهادة؟ الشهادة
البيسة التي لم يهدأ أحد يرغب فيها، لأن ثمة الكثير من القضايا في
أرجاء العالم، مجاعات، فيضانات، زلازل، مذابح الأطفال. لا يمكن
تتبع كل شيء. توزيع العطايا في كل مكان. وأنا، وأنا، هل يعطونني
شيئا؟

سامسكُ بيدك في هذه الحركة الطقوسية، سنوائم خطوط حياتنا،
ومزاجنا، وحظنا. سنزيد عدد أطفالنا. وبمفعول الحب هذا، سنخفي
الصخر. سئلقى الصلْب والهش، الجاف والرطب. سنزحف داخل
التفق المفتوح على ليل حدوسنا المشبع بالهواء. سيحدث في غروقتنا
ما يشبه ارتعاش الربيع. سيعود الهُتاف إلى خلقنا المسدود بأعلى
أنواع الصمت. وحالما يُصافح أول شعاع حدقاتنا، شعاع الكلام.
أجل، سنعود كائنين مُتكلمين كما كنا قبل قرون عندما انقلب العالم
القديم. أتذكرين؟ كنا وسط هذا الشعب الذي كان يتكوّن، والذي
جعل من التكوين عملاً إنسانياً. كانت بضغ أفكارٍ ثورانية كافية لكي
يتحوّل الحشد - المثبت من العشيرة - إلى شعب - هذه الكلمة
المبعدة في أيامنا هذه. كيف وجدنا نفسنا هناك، في الساعة
الموعدة، وسط ذلك الشعب الذي كنا نكاد نفهم لغته؟ هذا ما
يغشُر عليّ تفسيره إلى اليوم. ينبغي التسليم بأننا كنا قد صرنا مُتقلّين
كلّي الحضور أو سندبادين جنحت سفينتهما إلى ساحل مجهول
وقرنا المضيّ بعيداً في استكشاف بلدٍ لاح لهما في الوهلة الأولى
مليئاً بالغموض. لكن ربّما تكون ذاكرتنا تخدعنا مرةً أخرى داخل هذا
الكهف المحمول فوق بساط طائر، مُحرراً من عراقيل الأرض

وتاريخها. هناك حيث تكفي هتافات الأمس بالعبور، وتمو الظلال
دون انقطاع، وحيث التفّ ثانية، بفعل السحر، خيط أريان الماهرة
حتى يمتدّ بحثنا حسب هواه ويغدو بدوره تدشيناً.

باريس متعردة! قصيدة على الشفاه. قصيدة غنّف وحب. مسقية
بالنّسغ والدم. شجرة مُرتجة بسلالة من العبيد الرّاعين، سبارطاكوس.
قرامطة الفرات والبحرين. كوكبة نجوم متمردة تلمع وتخبو على امتداد
القرون. قصيدة سريّة. ذلك أنّه

لا تُوجد كلمات لقول

العين الثالّية المفتوحة

من الأخشاء الكونية للأرض

زمنجرة القبور

عند آختراق الأكناف

نساء ذكوريات الصراخ

رجال مؤشومون

أبناء سفاح طالعون من العيش القديم

واقفون

عند ملتقى الأمواج

المهوسية بالأمال

لقد انتبشوا فأس الحب

وقطعوا عراقيب

الأفراس الطاغية

وفي باقات جمعوا

زود الدم التي تتعدّر تسميتها

ها هم يشوقون

بين أهداق الذئاب

قطع الأحلام المُجهّزة الهش

وجلاجلهم، جلاجل كاتدرائيات محوّلة لأغراض أخرى

تدق ناقوس تكوين آخر

هكذا

سيكون الخلق حراً

في فم الآلهة التي لا صغينة لها

ومن باستيل إلى باستيل

يذيون قُضبان العالم القديم،

والأيام السيئة

يحفزون أحاديذ الأفق

ليزرعوها بتغفات

البذور المتعردة

ثم يلتفتون

وَيُنظَرُونَ إِلَى عَمَلِ حُفَمِهِمُ الشَّافِي

وَيَقُولُونَ «هَذَا حَيْدٌ»

كَلَّا، لَا تُوجَدُ كَلِمَاتُ

لِلتَّعْبِيرِ

عَنْ فَخْرِ كَيُونَةِ الْإِنْسَانِ

سنخضع مثل الجميع، بعد أن تغلبنا على شكوكنا. سنبارح الصحراء أخيراً. سنقطع عصا الحُججاج ونمضي لإشاعة التِّيا السعيد. سنلاقي الجحود. ونتحلُّ الشخرية والمهانة. سيرموننا بالحجارة. ويلقون القاذورات على رأسينا. لكننا سنقاوم ونغزو بعض القلوب تدريجياً. بدءاً بقلوب النساء، والأطفال، والمظلومين. سيتدرد صدى الرسالة في العالم قاطبةً. بفضل يَضَعُ كلمات، بضعة أفعال، دون سلاح أو غُدة، سنساهم في الهداية التاسعة. سينبت الحب حتى في الحصى، وعلى ذرى الأمواج، وفي حُمم البراكين الكبريتية. لن يعود الموت، موتاً، عذاباً. بالعكس، سنهرع لملاقاته كما لو كان مؤمداً غرامياً هادئاً ودون حُمى. سنغمض أعيننا فيخرج الرَّمقُ الأخير.

لكن ما الذي حدث حتى صار هذا الحُلم بدوره قائماً، مُجهضاً؟ هل كان الصَّدعُ فينا أم في الرسالة؟ ما تصدُّرُ الأذى؟ الأذى كان لا بُدَّ من الإقرار به والاعتراف بوجوده فينا بعدما اعتقدنا طويلاً أنه مُنحصِرٌ في الآخرين. كيف غدا الإنسانُ عدوًّا للإنسان؟ من زرع الكراهية في حقل الخرائب هذا الذي يُغطي الآن الأرض من أقصاها إلى أقصاها؟ من اترقت يداه هذا الليل المُتوحش؟ وكم زمن ديمومته حقاً؟

سأسمسك بيدك وتبارح الكهف. الآن وقد انتعشت ذاكرتنا، غدنا جديدين مثلما ولدنا أمتنا. تغلبنا على النسيان والخوف من الذكري. وإذا كنا نجهد وجهتنا، فنحن نعرف على الأقل المكان الذي جئنا منه. كما نعرف الثمن الذي دفعناه لكي نكون، بعد خروجنا من المتاهة، في ملتقى الاختبارات الإنسانية.

أمسكي يدي، أرجوك، وبوحي لي أخيراً بإسْمِك. ولتكوني نديمتي في هذا الاحتفال الصافي بالحياة.

مُحْمَلَيْنِ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، كَانَ لَا بُدَّ أَنْ نَغَادِرَ بَارِيسَ. لِنَسْتَأْنِفَ طَوَافًا. عَبْرَتَا خِلَالَهُ تُحَوِّمًا عَدِيدَةً قَبْلَ أَنْ نَعُودَ ثَانِيَةً إِلَى نَقْطَةِ انْطِلَاقِنَا. لَمْ تَلُحْ لَنَا الْأَرْضُ أَبَدًا صَغِيرَةً إِلَى ذَلِكَ الْحَدِّ بِحَيْثُ يُمْكِنُ احْتَوَاؤُهَا فِي الْقَصِيدَةِ الْمَعْيَشَةِ وَحِدهَا. لَكِنْ أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَخِيرَةُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ بِالْأَخْرَى أَكْبَرَ مِنْهَا بِكَثِيرٍ؟ لِذَلِكَ، حَالَمَا نَزَلْنَا لَقْنَا لَيْلٌ غَرِيبٌ بِظِلَالٍ مُخْدِرَةٍ. ثُمَّ اسْتَيْقَظْنَا حَيْثُ نَحْنُ، هَرَمَيْنِ بَعْدَ أَنْ كُنَّا قَدْ اسْتَعْدْنَا شَبَابَنَا. تَلَاشَى الْهُتَافَ لِيَحِلَّ مَحَلَّهُ تَدْفُقُ عَيْنَيْهِ كَمَا لَوْ كَانَ صَادِرًا عَنْ سَلَالٍ يُوحِي لَنَا هَدِيرَهُ السَّحِيقَ بِأَنَّهُ نَازِلٌ لَيْسَ مِنْ أَعْلَى جُزْفٍ مَا بَلِ مِنْ أَقْصَايِ السَّمَاءِ.

صَحْوُنَا مِنْ غَشِيَتِنَا فَالتَّبَسُّعُ ذَلِكَ الصُّعُودَ اللَّيْلِيَّ. كَيْفَ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَمِيزَ فِي هَذَا الْأَمْرِ بِرُمَّتِهِ نَصِيبَ الْحُلْمِ مِنْ نَصِيبِ الْوَاقِعِ؟ وَلِمَاذَا تَعَلَّقَ الْأَمْرُ بِقَصِيدَةٍ مَا، أَلَيْسَتْ مِثْلُ كُلِّ الْقَصَائِدِ؟ هَشَّةٌ وَعَابِرَةٌ، يَتَغَيَّرُ مَعْنَاهَا بِتَغْيِيرِ الْأَيْدِي، وَتَصْطَبِخُ بِلَوْنٍ وَرَائِحَةٍ كُلِّ أَرْضٍ، كُلِّ حَقِيقَةٍ تَجَنُّحُ إِلَيْهَا مِثْلَ قَتِينَةٍ مَرْمِيَةٍ فِي الْبَحْرِ. فِي الْوَاقِعِ، وَكَمَا لَاحَظْتِ، التَّقَاشُ قَدِيمٌ جَدًّا. بِدَائِنَاهُ مِنْذُ سَقُوطِنَا قَبْلَ الْفَنِيِّ عَامٍ، رَجْمًا بِوَقْتِ أَكْثَرِ أَوْ أَقَلِّ، وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي تَوَقَّفْنَا فِيهَا عَنِ الْحِسَابِ. أَجَلٌ، هَا نَحْنُ نَلْمَسُ الْبِدَايَاتِ.

سَأَسْمَسُكَ بِبَيْدِكَ. وَسِيمِرُ تِيَارَ التَّعْرِوفِ قَوِيًّا بَيْنَنَا. سَتَلُوحُ نَجْمَةٌ مَوْسُومَةٌ. عَلَى جَبِينِكَ أَمْ جَبِينِي؟ سَيَنْهَمِرُ شَعْرَانَا الطَّوِيلَانِ عَلَى كَيْفِيَّتِنَا. وَسَتَكُونُ الصَّخْرَاءُ هِيَ أَوَّلَ مَكَانٍ تَطْرُقُهُ حُطَانَا. سَنَسِيرُ دَاخِلَ مَتَاهَةِ الْكُتُبَانِ الرَّمْلِيَّةِ، وَالْحَصَى الْمَحْفُورِ بِالرِّيحِ وَالْمُخْرَمِ بِالشَّمْسِ. سَيُنْسِينَا الْحَجَرُ الْمَشْدُودُ حَوْلَ الْبَطْنِ الْجُوعِ، لَكِنَّهُ لَنْ يُنْسِينَا الْعَطَشَ. سَنَطُوفُ بِالْوَحَاةِ وَالْقَوَافِلِ. سَنَبْتَعِدُ عَنِ النَّاسِ لِكَيْ نَلْتَحِقَ بِهِمْ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ. سَتَكُونُ الْمَغَارَاتُ (فِي هَذَا الْأَوَانِ!) مَلَاذِنًا الْوَحِيدِ. هَكَذَا سَنَهِيمُ عَلَى وَجْهَتِنَا إِلَى حَيْثُ انْكَشَافِ الْكَلِمَةِ. سَيَأْزِفُ أَوَانُهَا مَسْبُوقًا بِعَلَامَاتٍ مُتَوَقَّعَةٍ وَغَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ. سَتَلْمَعُ نَجْمَةٌ جَدِيدَةٌ فِي السَّمَاءِ الَّتِي سَتَمْرَقُ وَتَمُطِرُ وَابِلًا مِنَ التِّيَازِكِ. سَتَنْتَقِلُ الْحَيَوَانَاتُ. وَتَتَحَرَّكُ الْجِبَالُ. وَتَسْتَحْبُ غَابَةً بِأَكْمَلِهَا جُذُورَهَا مِنَ الْأَرْضِ وَتَمْضِي لِلْغُرُقِ فِي عَرْضِ الْبَحْرِ. وَسَيَتَعَابَقُ الْأَنْبِيَاءُ. رُشِلَ الْكُلُّ الْأَعْظَمُ أَوْ تَجَسَّدَاتِهِ. ذُووُ مَعْجَزَاتٍ أَوْ شَافُونَ بِالْكَلامِ، احْتِرَابِيُونَ أَوْ شُهَدَاءُ. وَدِيْعُونَ أَوْ مَتَوَعِدُونَ بِاللَّعْنَاتِ. وَتَسْتَحْضَعُ الشُّعُوبُ وَاحِدًا تَلُو الْأَخْرَى، بِقَلْبٍ مَفْتُوحٍ، مُطَهَّرٍ مِنْ دَمِهِ الْأَسْوَدِ، وَمُلْتَمِسٍ بِمُلَامَسَةٍ وَاحِدَةٍ بَعْدَمَا تَلْقَى بَذْرَةَ الْغُرُزِ الَّتِي لَا تَفْنَى.

